



وجه الجمهورية

كانت سنة ٢٠٠٢ مخصصة في فرنسا لمئوية فكتور هوغو الثانية. عملاق الادب نال نصيبه من التكريم. لكن الرجل الضمير الذي يمثل واحداً من اقانيم الجمهورية نال اكثر من ذلك: فرصة جديدة للثبات ان روح الجمهورية التي اعلاها كما لم يُعلها احد، قابلة للصدوم امام نزعة الانتحار التي تنتابها بين الحين والآخر.

اكثر ما فاجأ الفرنسيين، بعد المفاجأة الاصلية التي شكلها انتقال جان ماري لو بن الى الدورة الثانية من الانتخابات الرئاسية الفرنسية، كان حدة ردود الفعل العالمية. وكأن الاجانب يصرون على خصوصية فرنسية تخلى عنها ابناء البلد. فرغم اعوام من التراجع في مستوى النقاش السياسي، ومن تنفيه للشأن العام، لم ينجح الفرنسيون في افقاد جمهوريتهم رونقها المميز في العالم. على موجات "اذاعة الشرق"، وضمن برنامج "بلوريل" (الجمع) الذي يستضيف كل اسبوع ندوة تشارك فيها شخصيات اعلامية وسياسية باريسية مرموقة، كان سرج جولي، مدير جريدة "ليبراسيون"، يعزّي نفسه بردود الفعل العالمية، رغم قساوتها، ملاحظاً ان الدنيا قامت بمجرد ان مرشحاً يمينياً متطرفاً تأهل للدورة الثانية من دون ان يكون له ادنى حظ في الفوز برئاسة فرنسا، فيما تمكن اقصى اليمين، في اكثر من دولة اوروبية، من المشاركة في السلطة ولم يثر كل هذه الجلبة. واستخلص جولي من هذه المفارقة ان فرنسا لا تزال تحتل مكانة على حدة في الوعي العالمي، مما يضع الناخبين فيها امام مسؤولية مضاعفة.

مسؤولية الناخبين هي ما ركز عليه سلمان رشدي مقاله المنشور في جريدة الـ"واشنطن بوست". ولم يتوان رشدي عن الكتابة انه بدل انسحاب ليونيل جوسبان من الحياة السياسية، كان الاجدر بالناخبين ان يستقيلوا! والمقصود بذلك ليس السخرية من النخبوية، على غرار نكتة برتولت بريشت الشهيرة حول ضرورة "انتخاب شعب آخر"، بل انتقاد ما يمكن تسميته شعبية التخلي. الانتقاد لا يُلقيه رشدي على الفرنسيين وحدهم، فليس موضوعه "الاستثناء الفرنسي"، والمشكلة عنده في ترف غربي عارم.

فيقول كاتب "الآيات الشيطانية" انه عندما يُسأل عن سوء ما عاناه طوال فترة تخفيه، بعد صدور فتوى الخميني في حقه، يجيب بانه حرمانه حق التصويت، اذ لم يعد في استطاعته الحصول على البطاقة الانتخابية البريطانية باعتباره اصبح مجهول مكان الاقامة. لكنه يضيف، ان الجمهور الغربي الذي يسمع هذا الكلام لا يحمله على محمل الجد، وهذا عين الخطأ. شعوب مترفة تهمل حرية الاختيار التي تملكها، فتسمح أنا بانتخاب جورج دابليو بوش، وأنا بشطب رئيس وزراء ناجح مثل جوسبان لمصلحة لو بن، فيما جنوب المعمورة يعجّ بالشعوب المتعطشة الى ممارسة حق الانتخاب الذي تحرم إياه.



تلك هي المفارقة التي يسطرها رشدي، مضيفاً ان عدم التنبه اليها هو ما يفتح الطريق امام النزعات اليمينية المتصلبة. فالانزواء في فناء البيت بحجة الاهتمام بالحديقة الخاصة لكل واحد، لا بد ان يحرك الشعبان الذي يعيش فيها.

قيل ان نجاح لو بن (في الدورة الاولى) هو من نتائج احداث ١١ ايلول. والحق ان الرجل الذي بنى خطابه على كراهية المهاجرين العرب وجد في تجريم صورة العربي ما يشرعن عنصره. وهو لم يتأخر اصلاً عن المفاخرة باسبقيته في هذا المجال. لكن كل من تابع يوماً ما نشرة الاخبار على احدى قنوات التلفزيون الفرنسي خلال العقد المنصرم، يعرف انه من المحجف نسب ظاهرة لو بن الاخيرة الى بن لادن. فالنزعة التي رصدها رشدي اكثر ما تتبدى على شاشات التلفزيون الذي خضع الى ظاهرة تزييف مخيفة تنعكس في تراتبية غريبة عجيبة للانباء. عام ١٩٨٢، تم فصل برنار لانغوا، مقدم نشرة الظهيرة على القناة الثانية، لانه رفض الانصياع لاوامر ادارته التي قضت باعطاء الاولوية الى نبأ مقتل غريس كيلي، اميرة موناكو والنجمة السينمائية السابقة، على قضية اغتيال بشير الجميل في بيروت.

الرسالة كانت واضحة: "الجمهور عايز كده". لكن المنحى الذي اتخذه الاعلام المرئي الفرنسي في الآونة الاخيرة ذهب ابعده من مجرد تقديم الخبر "الشعبي" على الخبر السياسي الجدي. انه منحى الاعلام "عن قرب" الذي انعكس ايضاً، ولو بدرجة اقل، على الصحافة المكتوبة نفسها، بما فيها جريدة "لو موند" التي بنت مجدها على متابعتها التفصيلية للسياسة الدولية. فالاعلام "عن قرب" لا يفضي فقط الى اهمال ما يجري بالعالم، بل سرعان ما يهيمش السياسة، بحجة ان ما يهم الناس حقيقة هو شؤونهم اليومية: البيئة المدرسية، طريقة تمضية العطل، وسائل النقل، وحتى التعايش مع الجيران. قبل اسبوعين، وفي غمرة الحملة الانتخابية، عرضت القناة الثانية تقريراً طويلاً عريضاً عن حارس بناية يحسن ادارة الصراعات بين سكانها!

ولما كانت الاولوية للحياة اليومية، بحسب هذه الرؤية التي لم يكن اليسار بريئاً منها، كان من الطبيعي ان يحتل الامن حيزاً اخذ يكبر فيكبر، حتى كبر معه هاجسه وصارت الصورة العامة التي يشكلها عن نفسه المجتمع الفرنسي انعكاساً معظماً لهذه الصور الجزئية جداً. فاذا جاء موسم التعبئة ضد خطر خارجي/داخلي اسمه "الارهاب العربي"، اكتمل نصاب الهواجس ونسيت فرنسا نفسها.

لحسن الحظ، لا تنسى فرنسا كل شيء عن نفسها. ربما تكمن عظمتها في ذلك تحديداً. تستسلم للسهولة والتفاهة، وحياناً للفاشية، لكنها تنتبه في النهاية الى انحدارها، فتعود الى الصعود. طريق الصعود بدأ مساء الدورة الاولى بتظاهرات عفوية راحت تتكرر كل يوم، حتى صار المتظاهرون عشرات الالوف جابوا شوارع معظم المدن اول من امس، وبانظار استقناء الشارع الكبير الذي لا ريب انه سيجمع مئات الالوف لمناسبة اول ايار حول نصب الجمهورية في الساحة التي تحمل اسمها. لكن الصعود لن يكتمل إلا اذا استخلص المجتمع الفرنسي العبرة من هذه الانتكاسة وأدرك ان السياسة "عن قرب" هي ما اوصله الى الحضيض. عندها، فقط، سيتعرف فكتور هوغو مجدداً الى الوجه الذي عرف وأحب.

سمير قصير



Id-Reference	02-Pr-000751	
Media	(Support)	HC
Title		وجه الجمهورية
Subtitle		
Section		مرور الكلام
Language		عربي
Source		النهار
Page		
Date		٢٠٠٢/٤/٢٩ 29/4/2002
Author		سمير قصير
Co-Author		
Keywords		
	Persons	جورج بوش - فكتور هوغو - جان ماري لوبن - ليونيل جوسبان - بشير جميل - برنار لانغوا - سرج جولي - سلمان رشدي - خميني - غريس كيلي
	Locations	فرنسا
	Dates	١٩٨٢
	Themes	فرنسا - فكتور هوغو - انتخابات رئاسية فرنسية - جريدة ليبراسيون - واشنطن بوست - احداث ١١ ايلول - مقتل غريس كيلي - اغتيال بشير جميل - إعلام فرنسي
Subject		